صفة الكلام لله عز وجل

ومسألة القرآن واللفظ والملفوظ

تأليف

صقر بن نزهان بن عبيد الروقي

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وأعِنْ

صفة الكلام لله عز وجل والرد على الجهميَّة

الله تبارك وتعالى متكلِّم، وكلامه بصوت وحرف، والدليل من القرآن الكريم والسنّة النبويّة الصحيحة واللغة والعقل.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيما} [النساء]

وقال تعالى: {وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ} [الأعراف]

وزعم الجهمية الأشاعرة وإخوانهم الجهميّة الماتريدية، أن كلام الله ليس صوتاً ولا حرفاً، ولا يتعاقب ولا يتتالى، وأنه حديث نفس، ثم يكابرون ويقولون عن حديث النفس بأنه: كلام!

وهذا قول لم توافقهم عليه إخوانهم الجهميّة المعتزلة، بل عارضوهم عليه، وأنكروه عليهم، فقد كفانا شهادة إخوانهم المعتزلة على صحة قولنا، بأن الأشاعرة والماتريدية، يكذبون عندما يصفون حديث النفس بأنه كلام!

فكيف وقد شهد الله وشهد رسوله وأهل اللغة على كذبهم!

فما سوف نبيّنه من أدلة في الرد على قول الأشاعرة والماتريدية، في أن حديث النفس ليس كلاماً، يتضمّن إثبات أن كلام الله تعالى بصوت وحرف، وأنه يتعاقب ويتتالى، مما يتضمّن الرد على المعتزلة الذين يدّعون أن الله لا يتكلم!

فالله تبارك وتعالى في كتابه العزيز فرّق بين الكلام الذي هو صوت وحرف وبين حديث النفس.

فقال تعالى عن مريم: {إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوما فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّا} [مريم]

فأمرها الله تعالى أن تصوم عن كلام قومها فلا تخاطبهم بصوت وحرف، ثم قال تعالى مخبراً عنها: {فَأَشَارَت إِلَيهِ} [مريم] أي أشارت إلى قومها أنها صائم عن الكلام، وأن عليهم أن يكلموا الصبي، والإشارة هنا لا يمكن أن تكون إلا بحديث نفس، فإذا كان حديث النفس كلام -كما يزعم الأشاعرة والماتريدية- لم يجز لها أن تحدثهم حديث نفس، لكونها صائمة عن الكلام.

فإن قال قائل: إنما صامت عن الكلام بصوت. فالجواب: هذا كلام تقولونه لترقّعوا به قولكم، ثم إنه وحسب الآية صامت عن مطلق الكلام، ولم تحدِّد، فلو كان هناك كلام بصوت وكلام بغير صوت، لقالت: {فلن أكلم اليوم إنسيًّا بصوت} وبما أنها لم تقيد صومها عن الكلام، بصوت، وإنما أشارت بأنها سوف تصوم عن الكلام، ثم حدَّثت قومها بحديث نفس أثناء إشارتها لهم إلى الغلام، تبين أن الكلام لا يكون إلا بصوت، وأن حديث النفس ليس كلاما.

وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: {قَالَ رَبِّ ٱجعَل لِّيٓ ءَايَة قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمزا وَٱذكُر رَّبَّكَ كَثِيرا وَسَبِّح بِٱلعَشِيِّ وَٱلإِبكَٰرِ} [آل عمران]

وقال تعالى مخبراً عن زكريا: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَومِهِۦ مِنَ ٱلمِحرَابِ فَأَوحَىٰٓ إِلَيهِم أَن سَبِّحُوا بُكرَة وَعَشِيّا} [مريم]

وقوله: {وَسَبِّح بِٱلعَشِيِّ وَٱلإِبكَٰرِ}. وقوله: {فَأَوحَىٰٓ إِلَيهِم} أي: أشار إليهم أن يسبحوا الله بكرة وعشيا. هي أحاديث نفس، فلا تكون الإشارة إلّا أحاديث نفس، فلو كان حديث النفس كلاما -كما تزعم الأشاعرة والماتريدية- لم يجز له أن يشير إليهم بشيء.

والدليل على ذلك من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم".

رواه البخاري ومسلم.

فهذا الحديث، دليل صريح قاطع، على أن حديث النفس ليس كلاماً، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، فرّق بين حديث النفس، وبين الكلام.

فأبى الظالمون إلّا أن يجعلوا حديث النفس كلاماً، مُكابرة للحقيقة، ومُعارضَة للشريعة!

ومن حجج السنة على أن الله يتكلم بصوت يسمع وحرف ينطق، ما رواه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة".

فدلّ هذا الحديث على أن الله يكلّم عباده بصوت يسمع وحرف يفهم، بدلالة قوله: أنه ليس بينه وبينهم ترجمان، وهؤلاء الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة يزعمون أن الله تعالى لا يتكلم بحرف وصوت وأنه يخلق صوتاً يكون ترجماناً بينه وبين خلقه يترجم لهم ما يحدِّث به نفسه!

وأما الأدلة من اللغة.

فقد قال صاحب دليل السالك: "الكلام لغة: اللفظ الموضوع لمعنى مفيداً أو غير مفيد. واصطلاحاً: اللفظ المفيد، والمراد بالمفيد ما يفهم منه معنى يحسن السكوت عليه. بحيث لا يبقى السامع منتظراً لشيء آخر. مثاله: الله ربنا، ومحمد نبينا. وقوله: "اللفظ": أي الصوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية، بخلاف الإشارة، والكتابة، وعقد الأصابع، ونحو ذلك، فلا يسمى كلامًا عند النحاة. وقوله: "المفيد": يخرج الكلمة المفردة نحو: خالد، والمركب الإضافي نحو: أبو عبد الله، والإسناد المتوقف على غيره نحو: إنْ قدم

هشام .. ، فإن الاقتصار على مثل ذلك لا يفيد. وأقل ما يتألف منه الكلام: اسمان مثل: الغيبة محرمة. أو فعل واسم مثل: جاء الحق".

فوصف الكلام بأنه لفظ، واللفظ لا يكون إلّا بصوت.

وقال ابن منظور في لسان العرب نقلا عن ابن سيده: "الكلام القَوْل، معروف، وقيل: الكلام ما كان مُكْتَفِياً بنفسه وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه، وهو الجُزْءِ من الجملة؛ قال سيبويه: اعلم أَنّ قُلْت إنما وقعت في الكلام على أَن يُحكى بها ما كان كلاماً لا قولاً، ومِن أَدلّ الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماعُ الناس على أَن يقولوا القُرآن كلام الله ولا يقولوا القرآن قول الله، وذلك أَنّ هذا موضع ضيِّق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فَعُبِّر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أَصواتاً تامة مفيدة".

فوصف ابن سيده الكلام بأنه صوت.

وقال في القاموس المحيط: "والكَلِمَةُ: اللَّفْظَةُ، والقَصيدةُ" وقال أيضا: "وتَكَلَّمَ تَكَلُّماً وتِكِلاَّماً: تَحَدَّثَ. وتَكالما: تَحَدَّثا بعدَ تَهاجُرٍ".

فوصف الكلام هنا بأنه حديث بصوت، فالحديث أعم من الكلام، فكل كلام حديث وليس كل حديث كلام، لأن من الحديث ما يتحدث به المرء بينه وبين نفسه وليس هذا كلاما، ومثله القول، فإن القول أعم من الكلام، فكل كلام قول وليس كل قول كلام، لأن من الأقوال ما ليست كلاماً.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "الكاف واللام والميم أصلانِ: أحدهما يدلُّ على نطقٍ مُفهِم".

فوصف الكلام بأنه نطق.

وفي كتاب الآجرومية في النحو، للآجرومي، قال في تعريف الكلام: "هو اللفظ المركب المفيد بالوضع".

فقال هو "اللفظ" فلا يكون الكلام كلاماً حتى يلفظ وينطق.

بينما الأشاعرة والماتريدية، يزعمون أن حديث النفس كلام، فكذّبوا بالقرآن وحديث رسول الله وبلغة العرب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما بالحجج العقلية.

فقد علم بالعقل الصحيح والفطرة السليمة، أن الكلام بصوت صفة كمال، وأن العجز عن الكلام بصوت صفة نقص، فخالف الجهمية من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة العقل الصحيح والفطرة السليمة، فزعموا العكس!

وقد ذم الله تعالى اليهود عندما عبدو العجل، فكان فيما ذمهم به أن قال: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا} [طه]. أي: أن العجل لا يستطيع التحدث إليهم، بكلام مفهوم.

وذم نبي الله إبراهيم قومه على عبادة الأصنام، وكان مما عابها به، أنها لا تستطيع الكلام، فقال الله مخبراً عنه: {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ} [الصافات].

بينما الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة، يصفون الله بالصفة التي تنقَّص الله العجل بها، وتنقَّص إبراهيم بها أوثان قومه، فتعالى الله الملك الحق عن قول الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة علواً كبيرا!

فتوى للإمامين الجليلين الإمام أحمد بن حنبل والإمام إبراهيم الورّاق.

قال الحافظ عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة: وقال أبي رحمه الله: حديث ابن مسعود رضي الله عنه "إذا تكلم الله عز وجل سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان" قال أبي: وهذا الجهمية تنكره. وقال أبي: هؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس، من زعم أن الله عز وجل لم يتكلم فهو كافر، إلا أنّا نروي هذه الأحاديث كما جاءت.

وقال عبد الله بن أحمد في الفتاوى: قلت لأبي: إن ههنا من يقول: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: يابني هؤلاء جهمية زنادقة، إنما يدورون على التعطيل.

وذكر صالح بن أحمد بن حنبل، وحنبل، أن أحمد بن حنبل رحمه الله قال: "جبريل سمعه من الله تعالى، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل، والصحابة سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ".

ذكره قوام السنة الأصفهاني في الحجة في بيان المحجة.

وقال الخلال: وأنبأنا أبو بكر المروزي: سمعت أبا عبد الله وقيل له: إن عبد الوهاب قد تكلَّم وقال: من زعم أن الله كلَّم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله وعدو الإسلام، فتبسم أبو عبد الله وقال: ما أحسن ما قال، عافاه الله.

تنبيه: عبدالوهاب، هو الإمام عبدالوهاب الورّاق، أحد أعلام السنة المتقدمين.

وأنا أعلم، بأن أئمة السُنّة بشر يصيبون ويخطؤون، وإنما نأخذ من أقوالهم، ما وافقوا فيه الحقّ، وكان عَضداً له، وحُجّة على المخالفين.

فإذا ثبت بالأدلة من الكتاب والسنة واللغة والعقل، وفتاوى كبار أئمة السنة، أن كلام الله تعالى بصوت وحرف، وأن كلامه من فعله، وأن أفعاله صادرة من ذاته، علمنا أن حرفه

وصوته ليس بمخلوق، فهو يتدفّق من ذاته، وإذا خرج من ذاته، فلا يُدرى ما يصنع الله به، هل يعود إلى ذاته كما بدأ منها، أو يصنع الله به ما يشاء.

وهنا تنبيه: اللغة سواء كانت عربية أو أعجمية، هي الأصوات التي يصدرها المتكلم عندما يتكلم، والكلام فعل، وفعل العبد مخلوق، لأن الآلة التي يستخدمها العبد للفعل مخلوقة، وأما فعل الله فغير مخلوق، لأنه خالق وليس بمخلوق، وعلى هذا فأي لغة يتكلم الله بها فهي غير مخلوقة، لأنها من فعله سبحانه، وأي لغة يتكلم بها العبد مخلوقة، لأنها من فعل العبد.

وأما الشيء الذي لا يتكلم بصوت وليس بأخرس، كما يقول المتكلمون، فهذه صفة العدم، فإن العدم لا يتكلم وليس بأخرسٍ أيضا.

الشبهة الأولى:

احتجاج الأشاعرة والماتريدية بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم السقيفة، عندما قال: "كنت زورّت كلاماً في نفسي". وهذا أيضا ليس بحجة، فهو زوّر الكلام الذي سوف يقوله في نفسه، ولم يقل تكلَّمت في نفسي بكلام، وإنما زوّر الكلام، أي: أعدّه ونظمه، ولكنه لا يكون كلاماً حتى ينطق به.

الشبهة الثانية:

زعم الأشاعرة والماتريدية أيضا أن الكلام يشمل الكتابة والإشارة، وهذا ادعاء بغير دليل، وهذا أيضا باطل، فالمكتوب هو الكلام المسموع، ولكن الكتابة ليست كلاما، بل هي كتابة، فما في الكتاب هو كلام من تكلم به بصوت مسموع، دُوِّن في الكتاب -أي: رُسِم- كي لا يضيع، وأما الإشارة فقد سبق الرد عليها فيما أخبرنا الله به عن مريم وزكريا عليهما السلام، فلو كانت الإشارة كلاما لما جاز لهما أن يشيرا إلى قومهما.

الشبهة الثالثة:

احتجاجهم ببيت الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما .. جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

وقد أجاد الأستاذ عثمان العمودي وأفاد في الرد على هذا البيت ونقض استدلال المتكلمين به، حيث قال: "إنَّ مورد الاستدلال بكلام العرب وأشعارِهم إنَّما هو في الألفاظ والتراكيب والأساليب، لا في الحقائق والمعاني. وبيانُ ذلك أنه لا يستقيمُ لأحدٍ أن يسمعَ قول الحماسي:

هل الحبُّ إلا زفرةٌ بعد زفرةٍ .. وحرٌّ على الأحشاءِ ليس له بردُ

فيقولَ في حدِّ الحب: "ما كان يزفر منه الإنسان مرةً بعد أخرى"، ويلاقي في أحشائه الحرَّ منه! وهل البيتُ إلا دعوى أطلقها عاشقٌ آخرَ الليل! فإنَّ الشعراء والأدباء لا تؤخذ منهم الحقائق والمعاني، ولا يُرجَع إليهم في الحدود والتقاسيم، ولا يصحُّ لنا أن نستجلب المعاني التي ترنَّم بها عنترةُ في عبلة، أو سوَّدها كثيِّرُ في عزَّة، أو أرسلها ذو الرمَّة إلى ميَّة؛ ثم نقرِّر بها مسألةً من أصول مسائل الاعتقاد. ومحلُّ الاحتجاج بشعرِهم إنَّما هو فيما انفردوا فيه من الفصاحة والبلاغة والعلم باللغة وألفاظها واستعمالاتها. لا في المعاني التي ربَّما فاقَهم في الإتيان على أحسنِها بعضُ المتأخرين. ولو اطَّرد المستدلُّون بهذا البيتِ لجعلوا مصعبَ بن الزبير اسماً لنيزكٍ محترقٍ على الحقيقة! أليس يقول ابنُ قيس الرقيَّات:

إنَّما مصعَبٌ شهابٌ من اللهِ .. تجلَّت عن وجهِه الظلماءُ!

وللَزِم بذلك أن يكون النعمانُ اسماً للشمسِ التي تدورُ عليها الأفلاك، كما قال النابغة "فإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ"، ولكان إطلاقُ الرسول حقيقةً يصدُق على النورِ الذي قال فيه كعبُ بن زهير: "إنَّ الرسول لنورٌ يُستضاء به"، وإذا نزل إلى شعر المتأخرين فسيجعل النسيانَ علةَ تسميةِ الإنسان أخذاً من قول أبي تمام: "سُمِّيتَ إنساناً لأنك ناسي"، أو يجعل المتكلِّم بالحبِّ كاذباً، فإنَّ: "الحب ما منع الكلامَ الألسنا"، كما يقرِّر أبو الطيِّب، وليس لهم أن يقولوا: "إن هذه الأبيات تفترق عن ذلك، فإنَّها جاءت على ما تعرفه العربُ من المدح والاستعارة وجودة التشبيه". إذ إننا سنقول في بيت الأخطل ما قالوه، وأنَّه جارٍ على مذهبِ العربِ في التلطُّف وحُسن التعليل" انتهى كلامه.

الشبهة الرابعة:

يزعم الجهمية من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، أن الصوت لا يمكن أن يحدث إلا باصطكاك الأجرام! وطبعاً هذا قياس عقلي فهم لما رأوا في زمانهم أن الأصوات لا تكون إلا باصطكاك الأجرام زعموا ذلك، فكان جواب أهل السنة "السلف": أنه لا يلزم من

صدور الصوت أن تصطك الأجرام ولا يعني أننا لا نرى ولا نشاهد الصوت يصدر إلا من اصطكاك الأجرام أن الصوت لا يصدر إلّا كذلك.

ومع تقدم العلم وخروج المذياع والتلفاز والتلفون والجوال بان بعد نظر أهل السنة "السلفيون" ورجاحة عقولهم وتبيّن قصر نظر المتكلمين وسخافة عقولهم.

وكذلك دلّت الأدلة الشرعية على أنه قد يصدر الصوت من الأشياء بدون اصطكاك أجرام، كما ورد في الحديث الصحيح، الذي رواه مسلم واللفظ له، ورواه الترمذي، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن".

فدلّ هذا الحديث على أن الصوت قد يصدر من المخلوقات وإن لم يكن هناك اصطكاك أجرام، فالحجر الذي كان يسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم، كان يتكلَّم بلا فم ولا لسان ولا أسنان ولا لهاة ولا حلق، وبلا اصطكاك للأجرام.

الشبهة الخامسة:

يزعم الجهمية من المعتزلة والأشعرية والماتريدية أن الحصى والكواكب والسماوات والأرض تسبِّح والتسبيح كلام ومع ذلك لا نسمع لها صوتاً فدل هذا على أن من الكلام ما لا يكون صوتا.

والجواب على ذلك من وجهين:

الأول: من قال بأن التسبيح يلزم منه أن يكون كلاما، ويجب أن يصدر منه صوت، فمن التسبيح ما يكون بين العبد ونفسه، فيسبح الله في نفسه "حديث نفس" وقد قال الله تعالى "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي" فمن الذكر ما يكون في النفس وليس كلاما.

والثاني: من قال بأن الحجر والشجر والنجوم والكواكب والسماوات والأرض لا تصدر صوتا عند تسبيحها! فقد تسبّح هذه الكائنات بصوت ولكن لا نسمعه، بمعنى أن الله تعالى حجب عنّا سماع أصواتها كما حجب عنّا سماع صوته وسماع أصوات الملائكة وسماع أصوات الجن وسماع أصوات البعيدين عنّا.

والدليل على ذلك أنه ورد في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع الصحابة صوت تسبيح الحصى، عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: كنت أتبع خلوات رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهبت يوما، فإذا هو قد خرج فاتّبعته فجلس في موضع فجلست عنده فجاء أبو بكر فسلَّم وجلس عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء عمر فجلس، عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان فجلس يمين عمر، قال: فتناول النبي صلى الله عليه وسلم حُصيَّات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن.

رواه البزار في مسنده.

وكان يسمعهم تسبيح الطعام وهو يؤكل، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "ولقد كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".

رواه البخاري.

فيكشف الله تبارك وتعالى الحُجُب عن أسماع الصحابة بمقدارٍ يسمعون فيه صوت تسبيح الحصى والطعام، ثم يحجبه متى شاء.

قلت: وسلام الحجر على النبي بصوت، وتسبيح الطعام والحصى والكواكب والسماوات والأرض، تشير إلى أن هذه الكائنات وإن بدت لنا جمادات خرساء إلا أنها في الحقيقة أحياء عاقلة ناطقة، ولكن حياتها لا ندركها، فحياتها بينها وبين ربها، وإنما هي بالنسبة لنا جمادات.

الشبهة السادسة:

احتجاج كهنة الأشاعرة والماتريدية على أن حديث النفس كلام بقوله تعالى {قَالُوٓا إِن يَسرِق فَقَد سَرَقَ أخ لَّهُۥ مِن قَبلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفسِهِ وَلَم يُبدِهَا لَهُم قَالَ أَنتُم شَرّ مَّكَانا وَٱللَّهُ أَعلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} [يوسف]

فيوسف قال في نفسه أنتم شر مكانا .. والقول كلام!

والجواب: أن القول أعم من الكلام والكلام أخص، فالكلام لا يكون إلا منطوقا ملفوظا بصوت وحرف.

فمعنى القول: أي: الانتقال من حال إلى حال.

كما تقول العرب: قالت السماء فأمطرت، أي: انتقلت من حال إمساك المطر، إلى الإمطار. وكما تقول العرب: قال الجدار فوقع. أي: انتقل من حال الوقوف والاعتدال، إلى حال السقوط.

فمحدث نفسه قائل، لأنه انتقل من حال عدم حديث النفس إلى حال محادثة النفس. فحديث النفس قول، ولكنه ليس كلاما.

تنبيه: اللغة سواء كانت عربية أو أعجمية، هي الأصوات التي يصدرها المتكلِّم عندما يتكلم، والكلام فعل، وفعل العبد مخلوق، لأن الآلة التي يستخدمها العبد للفعل مخلوقة، وأما فعل الله فغير مخلوق، لأنه خالق وليس بمخلوق، وعلى هذا فأي لغة يتكلم الله بها

فهي غير مخلوقة، لأنها من فعله سبحانه، وأي لغة يتكلم بها العبد مخلوقة، لأنها من فعل العبد.

وأما الشيء الذي لا يتكلم بصوت وليس بأخرس، كما يقول المتكلمون، فهذه صفة العدم، فإن العدم لا يتكلم وليس بأخرس أيضاً.

من أين أخذ الأشاعرة والماتريدية بدعة الكلام النفسي؟

قال يوحنا الدمشقي النصراني: "هذا الإله وحده ليس هو خائباً من كلمة، فله كلمة ليست خائبة من قنوم، ليست مبتدئة الوجود ولا منتهية، لأن الإله ما كان في وقت من الأوقات خائباً من كلمة .. مولودة منه دائماً".

وقال: "وليست كلمته مثل حكمتنا خائبة من قنوم، ومتدفقة في الهواء، لكن كلمته ذات قنوم حيّ كامل ليس متميزاً منه، لكنه موجود فيهى دائماً، لأنه إذا كانت كلمته خارجاً منه فأين تكون؟ ولَعَمْري إن طبيعتنا إذ هي بالية سريعة الانحلال، لذلك توجد كلمتنا خائبة من قنوم".

وقال: "وينبغي أن نعلم أن حركة عقلنا الأولى، تدعى فهماً، والفطنة بشيء من الأشياء تدعى هِّمة، فهذه إذا ثبتت ورسمت في أنفسنا قِيماً قد فطنت به تسمى رويّة، والروية إذا ثبتت في بحث واحد بعينه، وميَّزت ذاتها، وتصفحتها، تسمى بصيرة، والبصيرة إذا اتسعت، فمن شأنها أن تولِّد الافتكار المسمى قولًا مستكيناً .. ومنه يبرز .. الكلام البارز منطوقاً به باللسان .. ".

وقال: "والقوة الناطقة من النفس أيضاً، تنقسم إلى الكلام المستكن وإلى الكلام البارز، فالكلام المستكن هو حركة النفس بقوتها المفكِّرة، متكوِّنة خلواً من تصويت ما، فمن هذه الجهة، ربما نكون صامتين فننطق عند ذواتنا قولًا كله، ونناظر في مناماتنا قوما ونخاطبهم .. والكلام البارز، حاوياً فعله في الصوت وفي المخاطبات، أعني الكلام البادي باللسان والفم، ولذلك يدعى كلاماً بارزاً، وهو رسول الفهم".

قال الدكتور كمال اليازجي، في كتابه: يوحنا الدمشقي أرائه اللاهوتية ومسائل علم الكلام، ما نصّه: وأهم ما في هذا الشرح، فيما يعنينا، تمييزه بين الكلام المستكين والكلام

البارز، إذ هو شبيه بما وصفه الأشاعرة في شرح أزلية الكلام الإلهي بـ "الحديث لا نفسي" تمييزاً له عن الكلام المنطوق به والمسموع.

قلت: ما قاله يوحنا الدمشقي هو عين اعتقاد الأشاعرة والماتريدية، الذين يزعمون أن كلام الله تعالى مجرد حديث نفس، ويسمونه: كلام نفسي. وأن الصوت والحرف مخلوقان من مخلوقاته، وليسا من صفاته، وأن كلام الله النفسي لا ينقطع، فهو دائماً يتكلم بكلامه النفسي، أزلًا وابداً.

ويوحنا الدمشقي توفي سنة ١٣٢ للهجرة النبوية الشريفة، بينما أبو الحسن الأشعري توفي سنة ٣٢٤ للهجرة، وتوفي أبو منصور الماتريدي سنة ٣٣٣ للهجرة. وأما إمامهما في القول ببدعة الكلام النفسي، عبدالله بن سعيد بن كلّاب، فقد توفي سنة ٢٤٠ للهجرة، وهذا يعني، أن الأشاعرة والماتريدية، إنما أخذوا بدعة الكلام النفسي، من فرضيَّات يوحنا الدمشقي النصراني، مما يؤكد العلاقة الوطيدة بين هذه الطوائف المنحرفة عن هدي القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولغة العرب، وبين النصرانيَّة، وهذا ليس بمستغرب، فإن بدعة التعطيل أساساً، إنما أخذها إمامهم الجعد بن درهم من فلاسفة النصارى، حيث كان الجعد بن درهم، يجتمع بهم في دمشق، ويأخذ عنهم الكلام والفلسفة. ومما لا ريب فيه، أن اليهود والنصارى، سبقوا المتكلمين إلى الأخذ بأراء فلاسفة الإغريق في الصفات الإلهية، وأنهم كانوا وسطاء بين المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وبين فلاسفة الإغريق، مما سهّل اتصال المعتزلة والأشاعرة والماتريدية بفلاسفة الإغريق، والأخذ عنهم مباشرة دون واسطة.

فإذا كان الله يتكلم بصوت يسمع، فإن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهذا إجماع أئمة أهل السنة والجماعة، لا يعرف لهم مخالف في ذلك، سوى المتكلمين من المعتزلة وورثتهم من الأشاعرة والماتريدية.

قال عبدالله بن حنبل: سمعت أبي وسأله عبد الله بن عمر -المعروف بمشكدانه- عن القرآن؟ فقال: كلام الله عز وجل وليس بمخلوق.

وقال: سمعت أبي رحمه الله، مرة أخرى سئل عن القرآن، فقال: كلام الله عز وجل ليس بمخلوق ولا تخاصموا ولا تجالسوا من يخاصم.

وقال: حدثني أبو جعفر بن إشكاب، قال: سمعت أبي وهو الحسين بن إبراهيم بن إشكاب، ما لا أحصي يقول: القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق، ومن قال: مخلوق، فهو كافر.

وقال: حدثنا أبو الحسن بن العطار، قال: سمعت عاصم بن علي بن عاصم، يقول: القرآن كلام الله عز وجل. وأُراه قال: ليس بمخلوق. قال أبو الحسن: وسمعت هارون الفروي، يقول: القرآن كلام الله وليس بمخلوق.

وقال: حدثني أبو الحسن بن العطار، قال: سمعت عبد الوهاب بن الحكم الوراق، يقول: القرآن كلام الله عز وجل وليس بمخلوق.

وقال: حدثني أبو الحسن بن العطار، سمعت سفيان بن وكيع، يقول: القرآن كلام الله عز وجل وليس بمخلوق.

قلت: وكيع هو شيخ الإمام الشافعي.

وقال الإمام البخاري في كتاب خلق أفعال العباد: وقال بعض أهل العلم: إن الجهمية هم المشبهة، لأنهم شبهوا ربهم بالصنم، والأصم، والأبكم، الذي لا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يخلق، وقالت الجهمية: وكذلك لا يتكلم، ولا يبصر نفسه، وقالوا: إن اسم الله مخلوق، ويلزمهم أن يقولوا إذا أذَّن المؤذِّن أن يقولوا: لا إله إلا الله الذي اسمه الله، وأشهد أن محمدا رسول الذي اسمه الله، لأنهم قالوا: إن اسم الله مخلوق، ولقد اختصم يهودي ومسلم إلى بعض معطليهم فقضى باليمين على المسلم، فقال اليهودي حلِّفه بالخالق لا بالمخلوق، فإن هذا في القرآن، وزعمت أن القرآن مخلوق، فحلفه بالخالق، فبهت الآخر، وقال: قوما حتى أنظر في أمركما، وخسر هنالك المبطلون.

وقال البخاري: حدثنا الحسن بن صباح، حدثنا معبد أبو عبدالرحمن الكوفي، نزل بغداد، حدثنا معاوية بن عمار، قال: سألت جعفر بن محمد عن القرآن فقال: ليس بخالق ولا مخلوق.

وقال البخاري: وقال أبو عبد الله: احتج هؤلاء: يعني الجهمية بآيات، وليس فيما احتجوا به أشد التباسا من ثلاث آيات ، قوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان]، فقالوا: إن قلتم: إن القرآن لا شيء كفرتم، وإن قلتم: إن القرآن شيء فهو داخل في الآية، والثانية قوله: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} [النساء]، قالوا: فأنتم قلتم بقول النصارى لأن المسيح كلمة الله، وهو خلق، فقلتم إن كلام الله ليس بمخلوق، وعيسى من كلام الله، والثالثةَ: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ} [الأنبياء]، وقلتم ليس بمحدث. قال أبو عبيدة: أما قوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الفرقان]، فهو كما قال، وقال في آية أخرى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [النحل]، فأخبر أن أول خلق خلقه بقوله، وأول خلق هو من الشيء الذي يقال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الفرقان]، فأخبر أن كلامه قبل الخلق، وأما تحريفهم: إنما المسيح عيسى بن مريم، فلو كان كما قالوا لكان ينبغي أن يكون بين الدفتين:

وكلمته ألقاها إلى مريم لأن عيسى مذكر، والكلمة مؤنّثةَ لا اختلاف بين العرب في ذلك، وإنما خلق الله عيسى بالكلمة لا إنه الكلمة، ألا تسمع إلى قوله: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} [النساء]، يعني جبريل عليه السلام، كما قال في آية أخرى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} [مريم]، وقال: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [آل عمران]، فخلق عيسى وآدم بقوله: كن وليس بين هاتين الآيتين خلاف، وأما تحريفهم: { مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ} [الأنبياء]، فإنما حدث عند النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما علمه الله ما لم يكن يعلم.

وقال البخاري: وقال أبو عبد الله: والقرآن كلام الله غير مخلوق، لقول الله عز وجل: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فبين أن الخلائق والطلب، والحثيَث، والمسخرات بأمره، ثم شرح، فقال: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف]، قال ابن عيينة: قد بين الله الخلق من الأمر بقوله: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف]، فالخلق بأمره كقوله: { لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ} [الروم]، وكقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس]، وكقوله: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم]، ولم يقل بخلقه.

قلت: فهذا إجماع منَّ أئمة السنة، لم يختلفوا عليه، كما اختلفوا في مسألة اللفظ، وسوف يأتي بيانها إن شاء الله تعالى، فإذا اتّفق أئمة السنة على مسألة، لم يكن الحق ليكون في غيرها، إن شاء الله، وأنا أعلم، أن أئمة السنة بشر يصيبون ويخطئون، وإنما جئت من أقوالهم ما يؤيد الحق، ويثبته.

الشبهة الأولى:

يزعم الجهمية من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية أن القرآن محدث قال تعالى: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} وكل محدث مخلوق.

والجواب:

أولا: أنّا لا نسلّم بأن كل محدث مخلوق، فأفعال الله تعالى ليست مخلوقة، فهي قديمة النوع محدثة الآحاد، فالأصل أن يستدل بالآية على أن من المحدثات ما ليس بمخلوق، فأفعال الله وإن كانت حادثةً فهي ليست مخلوقة، فالله خالق وليس بمخلوق، وكل ما يصدر منه ليس بمخلوق.

ثانيا: الآية مختلف في تأويلها، فعن قتادة، أن المراد بالذكر، القرآن "انظر تفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم" وعن مقاتل، أن الذكر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبيّنه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن، وأضافه إلى الرب عز وجل؛ لأنه بأمر الرب "انظر تفسير البغوي" وفي تأويل أخر، أن المراد بالمحدث هو التنزيل، فتنزيل القرآن يحدث فترة بعد فترة، وهو الراجح في تأويل الآية.

الشبهة الثانية:

احتجاجهم بما رواه مسلم وغيره عن أبي أمامة الباهلي أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ البَقَرَةَ، وسُورَةَ آلِ عِمْرانَ، فإنَّهُما تَأْتِيانِ يومَ القِيامَةِ كَأنَّهُما غَمامَتانِ، أوْ كَأنَّهُما غَيايَتانِ، أوْ كَأنَّهُما فِرْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجَّانِ عن أصْحابِهِما، اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإنَّ أخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ. قالَ مُعاوِيَةُ: بَلَغَنِي أنَّ البَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.

وفي رواية: غيرَ أنَّه قالَ: وَكَأنَّهُما في كِلَيْهِما، ولَمْ يَذْكُرْ قَوْلَ مُعاوِيَةَ بَلَغَني.

والجواب:

أن علماء الإسلام وأئمة أهل السنة بيّنوا أن المراد بذلك أنه يأتي ثوابهما.

قال الإمام أبو عبيد، القاسم بن سلام رحمه الله، في فضائل القرآن ومعالمه وآدابه: "يعني ثوابهما" اهـ.

وهذا قول الإمام أحمد رحمه الله.

وقال ابن قتيبة الدينوري، في تأويل مختلف الحديث، ما نصّه: "قالوا أحاديث تدل على خلق القرآن قالوا رويتم قلب القرآن يس وسنام القرآن البقرة وتجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو خرقان من طير صواف ويأتي القرآن الرجل في قبره فيقول له كيت وكيت وهذا كله يدل على أن القرآن مخلوق ولا يجوز أن يكون ماله قلب وسنام وما كان غمامة أو غياية غير مخلوق قال أبو محمد ونحن نقول إنه قد كان ينبغي لهؤلاء إذا كانوا أصحاب كلام وقياس أن يعلموا أن القرآن لا يكون حسما ولا ذا حدود وأقطار وإنما أراد بقوله سنام القرآن البقرة أعلاه كما أن السنام من البعير أعلاه وأراد بقوله قلب القرآن يس أنها من القرآن كمحل القلب من البدن وأراد بقوله تجيء البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أن ثوابهما يأتي قارئهما حتى يظله يوم القيامة ويأتي ثوابه الرجل في قبره ويأتي الرجل يوم القيامة حتى يجادل عنه ويجوز أن يكون الله تعالى يجعل له مثالا يحاج عنه ويستنقذه.. والقرآن نفسه لا يكون رجلا ولا جسما ولا يتكلم لأنه كلام ولو أمعن هؤلاء النظر وأوتوا طرفا من التوفيق لعلموا أنه لا يجوز أن يكون القرآن مخلوقا لأنه كلام الله تعالى وكلام الله من الله وليس من الله عز و جل شيء مخلوق" اهـ.

وقال الإمام الترمذي رحمه الله في جامعه: "ومعنى هذا الحديث، عند أهل العلم، أنه يجيء ثواب قراءته، كذا فسَّر بعض أهل العلم هذا الحديث وما يشبه هذا من الأحاديث،

أنه يجيء ثواب قراءة القرآن، وفي حديث النواس عن النبي صلى الله عليه وسلم، ما يدل على ما فسَّروا، إذ قال النبي صلى الله عليه و سلم: وأهله الذين يعملون به في الدنيا. ففي هذا دلالة أنه يجيء ثواب العمل" اهـ.

وقال الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي رحمه الله في غريبه: "قوله: كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ يُظِلاَّنِ مَنْ كَانَ يَقْرَؤُهُما نُسِبَ الفِعْلُ إِلَيْهِمَا. وَإِنَّمَا المعْنَى لِثَوَابٍ يَفْعَلُهُ اللُّه بِمَنْ يَقْرَأُ بِهِما لِقَوْلِهِ ظِلُّ المؤْمِنِ صَدَقَتُهُ يقول: ثَوَابُ صَدَقَتِهِ" اهـ.

وقال الإمام البزار رحمه الله في مسنده: "وإنما معنى "يجيئان يوم القيامة" يجيء ثوابهما، كما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن اللقمة لتجيء مثل أحد" وقال: "ظل المؤمن يومئذ صدقته " فإنما هذا كله على ثوابه". اهـ.

وقال الإمام أبو عوانه رحمه الله في مستخرجه: "قال أبو عبيد في قوله "يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان": إنما هو الثواب. وهو بيّن في الكتاب والسنة؛ أما في الكتاب فقوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}، يريد به الثواب {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}. فيرون لو أنَّ رجلًا أطعم مسكينًا رغيفًا يراه بعينه أو ثوابه، وأمّا السنة، فقوله عليه السلام: "من عال ثلاث بنات كُنَّ له حجابًا من النار". معناه الثواب، لا أنهن يكن له حجابا من النار" اهـ

وجميع من ذكرت أسمائهم، هم أئمة السنة من الرعيل الأوّل.

مسألة اللفظ والملفوظ وما هو كلام الله الغير مخلوق.

انقسم أئمة السنة في هذه المسألة على ثلاث فرق، كل فرقة تدعي أنها أصابت الحق في هذه المسألة.

فالفرقة الأولى قالوا: بأن اللفظ والملفوظ واحد، وأن كلاهما فعل الله تعالى وتقدس، وإنما قالوا هذا القول، فراراً من القول بخلق القرآن، لأنه بزعمهم، إذا فرقوا بين اللفظ والملفوظ، وزعموا أن اللفظ مخلوق، فقد زعموا أن القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، كونه لا قرآن إلا ما نتلوه بأفواهنا.

والفرقة الثانية قالوا: بأن اللفظ والملفوظ مختلفان، وإنما بنو قولهم على أن تلاوة القرآن بأفواه العباد، وأفواه العباد مخلوقة، وإذا كان كلام الله غير مخلوق، فبالتالي فرّقوا بين اللفظ والملفوظ. فقالوا: اللفظ فعلنا بأفواهنا وهي مخلوقة، والملفوظ القرآن وهو كلام الله الصادر من ذاته، وذاته سبحانه ليست مخلوقة.

وممن قال بذلك: الإمام نعيم بن حماد وتابعه الإمام البخاري، وألّف في ذلك كتابه الشهير: خلق أفعال العباد.

وأما الفرقة الثالثة، فلم تحسن شيئاً من هذا كله، لذلك آثرت السكوت عن هذا الأمر والخوض فيه.

والإمام أحمد بن حنبل، سلك مسلك الفرقة الثالثة، وهو السكوت، وهو مذهب الجمهور، كما يزعم البعض، ولم أتثبت من أن هذا هو مذهب الجمهور.

وأذكر هنا خبراً وقع للإمام أحمد بن حنبل مع تلميذه أبي طالب، حيث سأله أبو طالب عن اللفظ والملفوظ، فلم يحسن الإمام أحمد أن يجيب على سؤاله، وأعطاه كلاماً فهم منه أبو طالب أن الإمام أحمد بن حنبل يقول بالحلول الجزئي، فأخذ ذلك وكتب به

لبعض معارفه، فبلغ الإمام أحمد ما فعله أبو طالب، فغضب منه، ووبّخ أبو طالب، وقال له: أنا لم أقل لك ذلك. أي: تبرأ مما فهمه أبو طالب من كلامه.

وهذا إن دلّ، دلّ على أن الإمام أحمد لم يعطه جواباً صريحاً بيّناً في المسألة، ثُمّ لم يُبيّن له وجه الحق فيها، بعد أن خَطَّأَ أبو طالب في فهمه لكلامه! وهذا فيه إشارة واضحة بأن الإمام أحمد لم يكن يدري ما هو الجواب الصحيح لهذه المسألة.

ثم صار الإمام أحمد بن حنبل، يفتي بالسكوت عن هذه المسألة.

بل أفتى بأن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع.

ولاحظوا أنه اكتفى فقط بتبديع من قال "لفظي غير مخلوق" مع أن قائل هذا القول، يلزمه القول بالحلول الجزئي! بينما جهّم من قال لفظي بالقرآن مخلوق، والجهمية في مذهب الإمام أحمد: كفّار!

والقول بالحلول سواء كان كلّيّاً أو جزئيّاً قول عظيم، وفرية شنيعة. إذا جعلوك في تلك اللحظة التي تقرأ فيها القرآن أنت الإله أو أن جزءاً منك، وهو الصوت والحرف الصادر منك، صار إلهيّاً، ولا ينفصل اللاهوت من الناسوت إلا بعد فراغك من القرآن، فليت شعري أي قول أقبح من هذا وأشنع، إنه لا يقل شناعة وقبحاً عن القول بأن القرآن مخلوق، وربما أشنع وأقبح!

والذي أثار استغرابي، هو أن الإمام أحمد مع كونه أفتى بالسكوت في هذه المسألة، وهو ما يشير إلى أن الإمام أحمد لم يهتد إلى الحق فيها، نجده عندما بلغه قول الإمام نعيم بن حمّاد بأنه يجب التفريق بين اللفظ والملفوظ، قال: ملأ الله قبره ناراً! فإذا كان الإمام أحمد لا يعرف الجواب الحق في هذه المسألة، فما أدراه لو أن الإمام نعيم أصاب الحق فيها؟!

وقد أخذ المتأخرون يقتبسون الأعذار لمن أفتى بالسكوت، بدعوى أنهم أفتوا بالسكوت عن ذلك، لأن هذه الأقوال فيها إيهام وإجمال واحتمال.

وهذا في الحقيقة غير صحيح، لو كان صحيحاً لما دعا الإمام أحمد على الإمام نعيم بن حمّاد بالعذاب في القبر لقوله بالتفرقة بين اللفظ والملفوظ، وإنما غلب على ظنّه أن نعيم عاد جهمياً بقوله أن اللفظ بالقرآن مخلوق، فدعا عليه لذلك، بدلالة أن الإمام أحمد نفسه قال: "من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي".

وهذا غريب جدّاً! فكلام الإمام نعيم بن حمّاد لا يشبه قول الجهمية، وأين قول الجهميّة من قول نعيم؟

بل إن قول: "لفظي غير مخلوق" الذين أكتفى الإمام أحمد بتبديعهم، أكثر شبهاً بقول الجهميّة من قول نعيم بن حماد، لأن فيه شبهاً بقول الجهميَّة، الذين يدّعون أن الله تعالى في كلّ مكان!

فما هو الحق في هذه المسألة وما الدليل على ذلك:

إنه لا بد من أن يلزمك أحد أمرين: إما أن تقول بأن اللفظ والملفوظ شيء واحد، أو تقول بأن اللفظ والملفوظ شيئان مختلفان، لأنه لا يوجد حالة أخرى يمكن أن تعتبرها خياراً متاحاً، سوى السكوت، والسكوت ليس جواباً، بل هو عجز عن الجواب، وعجز عن إدراك الصواب في المسألة المسكوت عنها.

والحق إن شاء الله تعالى هو مع أصحاب القول الثاني، وهو التفرقة بين اللفظ والملفوظ.

لأنك إذا لم تفرق بين اللفظ والملفوظ، لزمك أمران:

الأول: أن تقول بأنهما فعل العبد وبالتالي مخلوقان، وبالتالي تقرّ بأن القرآن مخلوق، وهو قول الجهميّة، الذين يريدون نفي صفات الله تعالى الثابتة بالكتاب والسنّة.

والثاني: أن تقول بأنهما فعل الله تعالى، وبالتالي هما غير مخلوقان، وهنا يلزمك القول بالحلول الكلّي أو الجزئي، والحلول الكلّي قول طائفة من الجهميّة أيضاً، فالخالق والمخلوق عندهم هو الله تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، فلا خالق إلّا الله، ولا مخلوق إلّا الله، قبّحهم الله وأخزاهم. والقول بالحلول الجزئي أيضاً شنيع قبيح، إذ جعلت الله تعالى وتقدس أو شيئاً منه، يحلّ في لسانك وأسنانك ولهاتك وحلقك وريقك، تعالى الله وتقدس عن ذلك.

أمّا إذا فرّقت بين اللفظ والملفوظ، فقد أعطيت كل ذي حقٍّ حقّه.

فالله له كلامه صوته وحرفه، الغير مخلوق، والعبد له كلامه صوته وحرفه المخلوق، فكلام الله تعالى بالقرآن أو غير القرآن ليس مخلوقاً، وكلام العبد بالقرآن أو غير القرآن مخلوق، فالعبد يقرأ القرآن بصوته وحرفه، وهما قطعاً من فعله، لا يشكّ في ذلك ولا يُمترى.

والسؤال هنا: هل بناءً على ذلك يكون القرآن الذي نتلوه ونكتبه في المصاحف مخلوق؟

والجواب: ليس مخلوقاً، لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله ابتداءً، وليس للمُؤدي له.

ومثال ذلك: لو أن شخصاً أخبرك بكلام شفويّاً، أو طلب منك كتابته في ورقة، ثم أمرك أن تبلغه رجلاً أخر. فبلغته ذاك الرجل، فلو سألك ذاك الرجل: هل هذا كلامك؟ فسوف تقول: لا، هو كلام فلان. فنسبت الكلام إلى قائله ابتداءً.

فكذلك القرآن إنما ينسب لقائله ابتداء.

لذلك نقول: أن القرآن ليس مخلوق، لأننا نسبناه لقائله ابتداءً، لأنه كلام الله ومن علم الله، وهما ليسا مخلوقان، لأنهما صفتان لله تعالى، وصفات الله من الله وليس من الله شيء مخلوق، نثبت بذلك أن لله تعالى كلاما وعلما هما صفتان ذاتيتان له.

ولكن الأدوات التي استخدمت في قراءته أو كتابته مخلوقة قطعاً، فأفواهنا التي نتلو بها القرآن مخلوقة، وأصواتنا التي نُسْمِعُ بها القرآن مخلوقة، والحبر والورق الذي كتب به القرآن مخلوقة أيضاً.

فأفواهنا نحن المخلوقات، كالحبر والورق الذي تُرسم به كلمات الله التي تكلم بها، هي مخلوقات يُؤدَّى بها كلام الله الغير مخلوق.

ولكن لا نقول بأن قراءتنا بأفواهنا هي عين قراءة الله تعالى، ولا نقول بأن رسم كلمات القرآن بالحبر على الورق هي عين كلام الله تعالى.

ولا أحد يقول: بأن الكلمات المرسومة بالحبر على الورق، سواء كانت قرآناً أو غيره، أنه كلام، لأن الكلام لا يكون إلا صوتاُ منطوقاً ملفوظاً، ومن يقول بذلك قليل عقل وفقه، لأن ما كتب بالحبر على الورق، ليس سوى رسم لهذه الكلمات، لتقييدها.

وإنما نحترم المصحف ونجله، لأن الكلمات المرسومة فيه، هي كلمات الله عزّ وجلّ.

ومثال ذلك، لو رُسِمت صورة شخصٍ له قدر عظيم في قلبك، على ورقة، فإنك لو سُئِلت من هذا؟ فسوف تقول: فلان. وأنت بالطبع لا تريد أن هذه الصورة هي عين فلان، وذاته الحقيقية، وإنما تريد أن تقول: هذه صورة فلان، وإنما اختصرت الجواب، وأشرت إلى الصورة إشارتك إلى الذات الحقيقية، لعلمك أن السائل، إنما يريد أن يسأل عن اسم صاحب الصورة. وإذا كان صاحب الصورة ذو قدر عظيم في قلبك، فمن المحال أن تُهين صورته بأي شكل من الأشكال، وهذا ما جُبِلت عليه النفوس، فكذلك صورة كلمات الله المكتوبة في المصحف، عندما تُسأل: هذا كلام من؟ سوف تقول: هذا كلام الله. لعلمك أن السائل إنما يريد أن يسأل عن عين الكلام الذي تم تصويره في المصحف، ولا شك أنك سوف تجل المصحف وتكرمه، لأن الصورة التي فيه، هي صورة كلام الله تعالى.

وهنا يكمن الفرق بين المذهب الحق، ومذهب المتكلمين الجهمية، إذ أن المتكلمين ينسبون الكلام لناقله وليس للمنقول عنه -أي: قائله ابتداءً- وللكتابة، وليس للمكتوب عنه. ومن هنا جاء قولهم أن القرآن الذي بين أيدينا مخلوق.

ثم هم لا يثبتون لله صفة كلاماً على الحقيقة، بل ينكرونها صراحة كالجهمية المعتزلة، أو يموهون، كالجهمية الاشاعرة والماتريدية، فكلام الله عندهم ليس صوتاً ولا حرفاً، بل هو حديث نفس فقط، ثم هو عندهم لا يتعاقب ولا يتتالى، بل هو أشبه ما يكون عندهم بموجة واحدة متّصلة، بلا صوت ولا حرف. ولا تسألهم ما دليلهم على هذا القول، لأنه لا دليل لديهم، هو شيء أفرزته عقولهم المريضة فقط، فالكلام بصوت وحرف عندهم كله مخلوق، وبالتالي، فالقرآن العربي مخلوق إطلاقاً.

وقولي بأن الجهمية الأشاعرة والماتريدية يُمّوهون، لأنهم يتظاهرون بموافقة أهل السنة في القول بأن القرآن كلام الله، فإذا سألتهم ما هو كلام الله عندكم، قالوا: هو حديث نفس فقط وليس بحرف ولا صوت، ولا يتعاقب ولا يتتالى، وهذا عين كلام المعتزلة، اللهم إنهم خالفوهم فقط في وصف حديث النفس بأنه كلام، وهذا ما لم توافقهم عليه إخواتهم المعتزلة.

وهذا معنى قول أئمة السنة بأن الأشاعرة والماتريدية تمسكوا بأصول المعتزلة وخالفوهم في الفروع.

ومن هنا نتيقّن، أن ما ذهب إليه الإمام نعيم بن حمّاد ووافقه عليه الإمام البخاري، هو الحق إن شاء الله في هذه المسألة، لوضوح قولهما وقوّة حجتهما، وموافقتهما للعقل الصحيح والفطرة السليمة، وأن من خالفهما لم يأتي بحجة ولا دليل صحيح صريح مقنع، إنما اكتفى بالمعارضة فقط!

تنبيه: الفعل أصالة ليس بشيء، حتى يقال بأنه مخلوق أو غير مخلوق.

فالفعل هو: حركة الذوات والآثار الناتجة عن هذه الحركات، إن كان لها أثر مخلوق.

والأئمة عندما يقولون: الفعل مخلوق أو غير مخلوق. إنما يعنون الذوات التي صدر منها الفعل، وآثار هذا الفعل. فلا وجود للفعل إذا غابت الذوات، وليس له أثر.

والفعل مثل الزمن، فالزمن لا وجود له ولا أثر له في غياب الذوات التي يتم من خلالها تقدير الزمن.

فالفعل والزمن وما شابهها، هي معانٍ فرضت، لوصف حركات الذوات وآثارها فقط.

إن أصبت فمن الله وحده وإن أخطأت في شيء فمن نفسي والشيطان واستغفر الله وأتوب إليه.

لما كان الإمام أحمد يقول بعدم التفرقة بين اللفظ والملفوظ، طرح بعض الاستدلالات ليثبت بذلك قوله.

فقد قال عبدالله بن حنبل في السنة: سألت أبي رحمه الله قلت: ما تقول في رجل قال: التلاوة مخلوقة وألفاظنا بالقرآن مخلوقة والقرآن كلام الله عز وجل وليس بمخلوق؟ وما ترى في مجانبته؟ وهل يسمى مبتدعا؟ فقال: هذا يجانب وهو قول المبتدع، وهذا كلام الجهمية ليس القرآن بمخلوق، قالت عائشة رضي الله عنها: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران] فالقرآن ليس بمخلوق.

قلت: ولا أعلم، ما هو الشاهد من الآية التي استدل بها الإمام على أن اللفظ والملفوظ واحد، لأني لا أجد في هذه الآية ما يشهد لصحة قوله!

وقال عبدالله: سألت أبي رحمه الله قلت: إن قوما يقولون: لفظنا بالقرآن مخلوق، فقال: هم جهمية وهم أشر ممن يقف، هذا قول جهم، وعظم الأمر عنده في هذا، وقال: هذا كلام جهم، وسألته عمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: قال الله عز وجل {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ} [التوبة] قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حتى أبلغ كلام ربي". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس".

قلت: فأما احتجاج الإمام بقول الله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة]، فليس فيه ما يدل على بطلان من فرّق بين اللفظ والملفوظ، لأننا قلنا، بأن الكلام ينسب إلى قائله ابتداء، وإن كان المتكلم به غيره، فنعم، نحن نُسِمع كلام الله تعالى لغيرنا، ولكن نؤديه بكلامنا نحن، وكلامنا من أفعالنا، وأفعالنا

مخلوقة. ويدل على ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد نفسه بعد ايراده لهذه الآية، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حتى أبلِّغ كلام ربي"، فأخبر أن الكلام كلام الله، وأنه هو المبلِّغ عن الله تعالى، لا أن الله تعالى هو من يتكلم بنفسه على ألسنة خلقه، تعالى الله.

وأما احتجاج الإمام أحمد بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس". فهذا استدلال باطل، لأن النبي قال: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن". فهل التسبيح والتكبير من كلام الله تعالى أم من كلام المخلوق؟! إنما مراد النبي صلى الله عليه وسلم بكلام الناس في هذا الحديث، ما يقع بينهم من أحاديث خارج الصلاة، وخارج العبادة، لا أن مراده أنه لا يصلح في الصلاة إلا كلام الله!

إذاً تبيّن لنا أن جميع استدلالات الإمام أحمد لم تكن صحيحة، ولكن حسبنا أن الإمام أحمد نفسه رجع عن هذا القول، إلى الوقف والتفويض!

وأما قول الإمام أحمد في الواقفية، وهم الذين يقولون: لا نقول في القرآن بأنه مخلوق ولا غير مخلوق، فواعجبي، لما لم يعقل الواقفة في القرآن، هذه المسألة، واحتاروا فيها، ووقفوا، ولم يقولوا: بأن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، لم يرتض منهم الإمام أحمد هذا القول، بل حكم بأنهم شرٌّ من الجهمية! بينما ارتضى هو أن يكون واقفياً في مسألة اللفظ والملفوظ، مع أنه لا فرق بين من وقف في القرآن، ومن وقف في مسألة اللفظ والملفوظ.

وهذا دليل على أنه يجب أن لا يؤخذ كلام العلماء وأراءهم على محمل الجدّ، حتى يكون الدليل معهم، وإلا فيبقى قولهم بلى قيمة علمية.

انتهى والله وحده أعلم وأحكم

المحتويات

صفة الكلام لله عز وجل والرد على الجهميَّة ٥
فتوى للإمامين الجليلين الإمام أحمد بن حنبل والإمام إبراهيم الورّاق. ١٠
الرد على شبهة الأشاعرة والماتريدية في نفيهم أن يكون كلام الله بصوت وحرف ١٢
من أين أخذ الأشاعرة والماتريدية بدعة الكلام النفسي؟ ١٨
القول في مسألة القرآن ٢٠
الرد على شُبه المتكلمين في القرآن ٢٣
مسألة اللفظ والملفوظ وما هو كلام الله الغير مخلوق ٢٦
فتوى للإمام أحمد والتعليق عليها ٣٣